الفنون والعمارة في منطقة فزان

أ.د. المختار عثمان العفيف
أ.د. حسن مولود الجبو

مقدمة:

إن الفنون والعمارة نتاج من النتاجات التي أبدعتها الحضارة الإنسانية منذ نشأتها، وازدادت حسناً وتألقاً مع التطور التاريخي عبر الحياة، حيث اهتم بها الإنسان منذ نشأته وأولاهما اهتماماً كبيراً، ومما زاد في شأنهما من رفعة وعلو في القدر والقيمة أنهما أصبحا أداة يتجه إليها السواح والمؤرخين والفنانين وغيرهم من مهتمين.

فالفنون والعمارة في مثل هذه القلاع والقصور تعتبر من الفنون المنضوية تحت الفنون التشكيلية ضمنا باعتبارها تعتمد على أسس فنية أصيلة كالتناسب والرشاقة والتناظر والامتداد والانتصاب والتكرار والتماثل والتوافق والتباين والوضوح والدقة وقوة الملاحظة ولمشاهدها والقدرة على المحاكاة التي من خلالها يتذوق الإنسان، فهي علماً يقوم على معايير دقيقة تضبط في دراسة أشكالها، ولذلك فإن قيمة تلك القلاع والقصور من الناحية الفنية والجمالية تتجلى في توافر الأسس الفنية الأصيلة مثل (عناصر التكوين الفني) وارتباطها بعلم الهندسة والفنون الذي يشكل تناسباً في أجزائها معبراً عن العلاقة الجمالية والوظيفية بينها تحت تأثير مقاييس معينة حتى ظهرت في تكوينها الجسمي (المجسم) إن فنون العمارة تعتبر وسيلة للعلم والمعرفة حتى أضحت فيما بعد مظهراً للجمال والإبداع، الأمر الذي ينمي حس التنوع والتذوق وبشكل دوري لكل إنسان مشاهد لتلك القلاع والقصور.

حيث تعد جماليات تلك المباني كفن تشكيلي يمتاز بخصوصية تكاد تكون منفردة في أبعادها وطبيعتها ووظيفتها ومستوياتها في خصوصية قد لا تتوفر في أي فن معماري آخر فهي لها خصوصية من الجمال بمستوى واضح من النظرلتلك الجماليات في التشكيل والتي يكتنزها الشكل في قواعد عدة وأصول متنوعة في أنواع كثيرة ومستوى معرفي فني خالص نابع من الذوق والابداع الرفيع يتمتع بدلالة رمزية له قاسم مشترك بين جماليات

التشكيل وجماليات العمارة بتأثيراتها النفسية والجمالية والفكرية بما يصنع ارتباط الشكل بالمضمون في مستوى واحد يتجسد عبر العلاقة العضوية الداخلية لارتباط الشكل المعماري التشكيلي بالمضمون اللغوي والتاريخي– أي أن قيمة الشكل الفني بقيمة المضمون.

والذوق بصفة عامة ينبثق عنه التذوق وهو صفة إنسانية بحثة اختص الله بها بني البشر فهي ميزه راقية جدا والإنسان قد لا يستشعر ماهية العمل الفني من الوهلة الأولى إلا بعد أن يتأمل ويتذوق فالتذوق هو مرحلة من مراحل التآمل للوصول إلى الغاية، وعملية التذوق الفني لها درجات متفاوتة من التحقق والنجاح وذلك لعديد من العوامل المتصلة بالفرد والمجتمع (منها المستوى الثقافي والطابع الذاتي والدافع الاجتماعي) ولكي نصل إلى مستوى جيد في عملية التذوق الفني يجب إيجاد لغة فنية ثقافية مشتركة بين الفنان والمؤرخ والمتذوق بالإضافة إلى جهود الناقد في ذلك، وأن التذوق الفني عامل مهم في تكامل شخصية المتذوق وممارسة تذوق الأعمال الفنية ومنها فنون العمارة تساعد على انتقال القيم والمفاهيم والمضامين الفنية المدروسة والمتذوقة إلى مواقف ونتاجات فنية قيمة وإلى العمل المبدع والمدروس في الحياة اليومية وفي الوسط الاجتماعي التنموي لذلك فإن المتذوق للفنون والعمارة لتلك المباني يحل محل الفنان ويشارك بقدرته الفكرية والإبداعية على امتلاك امتيازات تؤهله لمواجهة المنتوج الفني بناء على ما يستقبله من انطباعات ويضع تفسيرات لكل النظم الفكرية والمعرفية لأن التفضيل الجمالي لا يتوقف عند الحد أن ينهر مشاعر المتلقي، بل لابد من استخدام معيار للتقدير والتقييم ينتهي إلى نقد فني وحكم منطقي يؤثر في شخصية الفرد بالإيجاب، ولكل مجتمع ذوق عام وتفضيلات معينة تتشكل تبعاً لعاداته، وتقاليده، وعقائده، ومستوى معرفته وثقافته، ولا ننكر هنا أثر البيئة الاجتماعية والثقافية في تشكيل الذوق ومستوى النمو الثقافي من حيث البساطة والتعقيد وفي الغالب فإن الذوق ينتمي إلى طبقة اجتماعية معينة، فهناك ذوق خاص بأهالي المدينة والبادية وهناك ذوق خاص بالطبقة الأرستقراطية وآخر خاص بطبقة المثقفين وهكذا، أما في العصر الحديث ومع انتشار المجتمعات الصناعية، فقد ذابت إلى حد كبير الفروق بين أذواق الطبقات المختلفة،

وذلك نتيجة لتطور الاتصالات واستخدام الوسائل الحديثة في انتقال الثقافات من مجتمع إلى آخر بسهولة ودقة.

مشكلة الدراسة:

إن الفنون والعمارة تحمل العديد من القيم الفنية والجمالية ذات هوية وطراز خاص تلحم فيه قيمة الشكل بمغزى المضمون حيث يكتسب الشكل في التكوين الفني قيمته الجمالية والمتسامية من المضامين البليغة والخالدة التي اتجه إليها الفن والعمارة ولا يزال إلى التجديد الفني السامي في التعبير البصري عبر الأداء في كافة مجالات الفنون خاصة الروائع من الأعمال الفنية في فنون العمارة والتي تنمي الذوق العام وتعزز العمل التراثي إلى جانب التعبير عنه ودلالاته واحتواءه على قيم فنية وجمالية معينة وهو ينقل إلينا من خلال الكلمة المجردة مضمونها ومعناها وعندئذ يلتقي جمال الكلمة مع قدسية المعنى، وبالرغم من كثرة البحوث والدراسات التي شملت المباني التراثية القديمة وفنون عمائرها إلا أنه لم تصادف الباحثان دراسات تبحث في موضوع معرفة أثر القيم الجمالية والفنية في تنمية الذوق العام، برغم من وجود بعض المحاولات والتجارب التي درست في مجال تنمية الذوق العام في معظم مجالات الفنون التشكيلية، لكن هذه التجارب والدراسات كانت في معظمها حسب علم الباحثان على لوحات فنية وتشكيلية متنوعة، لذلك وجد الباحثان انحصار مشكلة البحث في التساؤل التالي:

ما أثر القيم الفنية والجمالية في تنمية الذوق العام بعد دراسة فنون العمارة للمدن الأثرية والقديمة في منطقة فزان؟

الهدف من البحث:

يهدف هذا البحث لإبراز القيم الفنية والجمالية لفنون العمارة وأثرها في تنمية الذوق الفني العام وذلك من خلال دراسة ما يلي:

1- دراسة القيم الجمالية والفنية لفنون العمارة في المباني القديمة والتعرف عليها عن قرب.

2- الكشف عن التكوينات الفنية والجمالية الأخاذة لفنون العمارة وأصولها القواعدية عبر تحقيق الأسس والشروط الخاصة بفنون العمارة والمتمثلة في الترابط والتوافق والانسجام والتباين والتناغم والتكرار والتجاور وغيرهم.

3- التعرف على خصائص الأعمال الفنية في الفنون والعمارة التي يكون لها الأر العميق في تنمية الذوق العام في منطقة فزان.

أهمية البحث:

إن موضوع القيم الفنية والجمالية لفنون العمارة في تنمية الذوق الفني العام جدير بالاهتمام للتطرق إليه من قبل الدارسين والباحثين وذلك لأهميته من حيث:

1- توضيح أهمية فنون العمارة القديمة في تأكيد هويتنا وإرثنا الحضاري والثقافي وتميزه عن باقي الفنون الأخرى.

2- إثراء جماليات فنون العمارة في دراساتنا البحثية.

3- المساهمة في الارتقاء بالمثيرات التي تستثير المشاعر الجمالية في فنون العمارة.

4- المساهمة في تنمية الذوق العام من خلال جانب التعبير البصري عن فنون العمارة في تلك القلاع والقصور.

حدود البحث:

1- **الحدود الزمنية:** يتحدد إطار هذا البحث في الفترة التي مرت فنون العمارة على مر العصور المختلفة.

2- **الحدود المكانية:** تتحدد حدود البحث المكانية في منطقة فزان في الجنوب الليبي.

3- **حدود الموضوع:** استثمار فنون العمارة وقيمها الجمالية والفنية في المستوى البصري (الشكل) النابع من قواعد وأسس الفنون التشكيلية المعروفة في علم الجمال والنقد الفني للذوق باعتباره حلقة اتصال بين الصورة الفنية والمتلقي.

منهجية البحث:

لتحقيق أهداف البحث اتبع الباحثان الخطوات التالية:

أولاً: الدراسة النظرية:

جزء من البحث اتبع المنهج التاريخي حيث عرض البحث نشأة فنون العمارة وتطورها.

وفي جزء آخر اتبع الباحثان المنهج الوصفي حيث تناول بالدراسة والتحليل للتكوينات الفنية والجمالية في فنون العمارة للمباني القديمة، كذلك تطرق البحث إلى مسألة الذوق والتذوق الفني والجمالي والقيم الفنية والجمالية في الذوق العام.

1- قلعة مرزق:

تقع مدينة مرزق في واحة خضراء في الجنوب الليبي[1] بالقرب من مدينة سبها وتسمى بمدينة الأساطير لدى الأوروبيين في مدينة مرزق في جنوب غرب ليبيا. تم تشييدها في العام 1310 ميلادية، أثناء تأسيس المدينة لتكون مركزا للسلطان وعاصمة لدولة اولاد إمحمد الفاسي. القلعة لديها سور مرتفع وتحصينات خاصة بالمراقبة، وتم بنائها من الحجارة والطين المدكوك. وتطل على قمة تل شمال غربي مدينة مرزق يقود إلى بوابتها أدراج، ومن وراء الباب يظهر البناء المربع الشكل والذي يتوسطه فناء يوجد به ممر يقود لساحة تطل على مباني القلعة.

الوصف الفني:

بعد احتلال العثمانيين لفزان في العام حل محل السلطان الباشاوات الذين حكموا المنطقة من هذه القلعة، قبل ذلك كان تصميم بناء القلعة يتكون من جناح خاص بالسلطان إضافة لبهو يضم كرسي عرشه، وجناح مخصص "للحريم" يضم السلطانة ونحو 40 امرأة، كما ضمت القلعة قاعة للاجتماعات ومقرات للخدم والحرس ودور للحكم.

وجاور القلعة بعض المرافق مثل ساحة صلاة الجمعة وسجن المدينة والذي ان يستعمل لنفي المساجين السياسيين الذي لا ترضى عليهم الدولة العثمانية.

الوصف الجمالي:

يلاحظ المشاهد لهذه القلعة بأنها عمل فني تراثي يتمتع بجمالية عالية وذلك لاحتوائها بالإمكانيات المؤهلة لذلك، حيث نلاحظ وجود المشربيان أعلى السور مرصوصة في إيقاع جمالي متتالي ومنتظم مع وجود أسفله فتحات خاصة بالحراسة والأمن مضيفة قوة

في الجمالية من خلال الايقاع المنتظم، كما نلاحظ أيضاً بوجود التصميم النحتي البارز على المدخل الرئيسي في شكل تصميمي لعقد مدلى على الباب يشير إلى رمزية ودلالة على الشموخ والرفعة الناتجة عن الاستقرار والصمود في وجه الزائرين لهذه القلعة، للقلعة الأمر الذي يساهم في إضافة للتكوين الجمالي والإبداعي، وكذلك الدرج المؤدي إلى المدخل الرئيسي للقلعة فيمنحها القوة التعبيرية في الوصف للعمارة وأسلوب التصميم الذي قام به مهندس هذا البناء، كما نلاحظ القوة في القيمة اللونية للجدار المعبرة عن توفرها في طبيعة المنطقة لها دلالة واضحة على ذكاء وقوة الفطنة في استغلال مواردهم الطبيعية في تشييد قلاعهم وحصونهم، الأمر الذي زاد من قوة تحمل العوامل الطبيعية مثل الرياح والزمن وصمودها شامخة إلى هذا الوقت.

قلعة مرزق

قلعة مرزق

2- قلعة سوكنة:

في وصف الرحالة الأوروبيين الذين زارو المدينة وتحدثوا عن أحوالها خلال القرن التاسع عشر نعلم أن سوكنة كانت من أهم المدن الواقعة على الطريق بين طرابلس ومرزق عاصمة فزان آنذاك[2]، تعتبر مدينة سوكنة قديمة من مدن الجفرة، وأن تاريخ سوكنة القديم غير واضح معالمه بشكل كبير، فهي تتمتع بمركز مرموق من حيث الأهمية الجغرافية بموقعها على طريق القوافل والرحالة من مدينة طرابلس الواقعة في الساحل على البحر الأبيض المتوسط شمالاً.

قلعة سوكنة

الوصف الفني:

إن مدينة سوكنة كانت عبارة عن مجموعة من القصور المتناثرة في غابات النخيل وأنه بترغيب من قبيلة الجهمة انتقل سكان تلك القصور وشرعوا في البناء حول أكبر القصور. فيقول: "سوكنة كانت في قديم الزمان غير منتضمة بل هي كانت قصيرات[3]، صغار متفرقة كل قصر في حطية، كما هي آثارها موجودة الآن.... وبترغيب من قبيلة الجهمة التي أغارت على القصر الكبير انتقل سكان القصور الأخرى بالقرب عن القصر الكبير وشرعوا في بناء منازلهم حوله .... فصارت قرية صغيرة .... ولا زالت أهل القصور تتحول وتبني في المساكن ولم يبق في القصور إلا القليل .... ثم أجبر سكان بقية القصور إلى السكن في القرية .... ولما تكامل السكان فيها اتفقوا على أن يجعلوا سور حائط عليهم ليحفظهم من العدو وبيبان يقفلوهن بالليل وكل من له باب مسمى عليه يؤول أمره يسكره بالليل ويفتحه بالنهار".

من خلال هذه الرواية التاريخية التي انفرد بذكرها محمد بشير نجومه في مخطوطه حول التأسيس العمراني لمدينة سوكنة، ومن هذا العرض التاريخي لمراحل التأسيس، ومن خلال الدراسة الميدانية التي قمنا بها أيضا لعدد من قصور سوكنة التي لا يزال عدد منها في غابات النخيل المحيطة بالمدينة، يتضح أن مدينة سوكنة من الناحية المعمارية والفنية قد

بدأت من تجمع سكان القصور الصغيرة التي أنشأت حول آبار المياه أو قريبا منها، ومن توزيعها أي القصور تدل على أنها أقيمت حيث تتوافر مواقع دفاعية فوق بعض التلال مثل قصر شجار، أو في وسط غابات النخيل كقصر تينداروا وقصر تيمز يلين.

الوصف الجمالي:

أهم ما يلاحظ على البناء المعماري والفني[4]لهذه القصور هو ارتفاع بناؤها عن سطح الأرض، إضافة إلى أنها كانت ذات أشكال مربعة أو مستطيلة أو دائرية، وذلك تمشيا مع الظروف الجيولوجية أو وفق طبيعة الأرض والمكان الذي يبنى عليه والمواد المتوفرة، لأن الطابع المعماري والفني أو ما يسمى بالطراز أو النسق المعماري ما هو إلا نتيجة طبيعية لعدة عوامل مشتركة ومتفاعلة مع بعضها، مصهورة في بودقة الانتقاع الكامل للمبنى، وأساليب البناء ومواد الإنشاء في القلعة، وطبيعة الإقليم أو المنطقة.

إن الجو الصحراوي القاسي ساعد في خلق القاعدة المعمارية لمدينة سوكنة التي اتصفت بصفة التضاد العضوي والبيئي Environmental Contrast، التضاد بين الجبال والرمال المحرقة والخضرة النضرة الدائمة في بساتينها وغابات النخيل التي تحفها، وارتفاع سور القلعة له دلالة رمزية في قوة التصميم وفن العمارة مع وجود الشكل الذي يوحي بالرمزية والقوة في التعبير والتباين والتكرار، ومهما يكن من أمر فبعد تحول سكان القصور وقيامهم بالبناء نحو القصر الكبير ووفق الروايات المحلية بدأ التكوين المعماري والتطبيقي من خلال الذوق الجمالي لمدينة سوكنة التي أصبحت بمرور الزمن تأخذ في تكوينها المعماري طابع المدينة المتكاملة. حيث تم بناء المسجد العتيق والسور وأصبحت تتكون من حيين سكنيين هما حي تيشرت وحي شلاكه ويتوسط الحيين القصر الكبير والجامع العتيق، وأصبحت مساحتها تتسع حتى بلغت في حدود سنة 1824م ميل مربع، تضم داخل سورها مجموعة من البيوت المتلاصقة الجدران، ذات شوارع وأزقة عشوائية المظهر، نالت نظافتها وأناقتها دهشة وإعجاب الرحالة كلابرتونClapperton ودنهامDenham وأودني Oudney وكانت أغلب أفراد الوحدة القرابية –العيلة اللحمة– يسكنون جنبا إلى جنب أو في جهة معينة من المدينة.

إذن فالتركيب الأساس الهيكلي لمدينة سوكنة كان يأخذ طابعا نوويا تجميعيا، ويمكن تلخيص أهم العوامل التي أدت إلى نمو هذا النوع من الاستيطان الصحراوي في سوكنة إلى عدة عوامل منها:

1- عوامل استراتيجية وخاصة فيما يتعلق بصد غارات وهجمات بعض القبائل البدوية التي كانت تغير على المدينة بين الفينة والأخرى، ومن ثم شيدت المساكن حول القلعة ثم بنيت الأسوار والأبراج التي تلف المدينة لتدرأ عنها الأعداء.

-2 عوامل جغرافية اقتصادية وخصوصا فيما يتعلق بصعوبة الحصول على المياه، فالقصر الكبير الذي أقيمت حوله المساكن به بئر ماء على عكس القصور الأخرى الصغيرة.

يعد سور قلعة سوكنة من أبرز المعالم المعمارية والفنية في بلاد فزان، وقد نال بناءه إعجاب جميع الرحالة الأجانب الذي زاروا سوكنة، حيث قال عنه صاحب كتاب Children of Allah أن السور مبني بشكل هندسي رائع، وخطة مدروسة.

وكان لسور المدينة سبعة أبواب ضخمة مصنوعة من خشب النخيل. ثم إضافة ثمانية أبواب في سنة 1824م. ويبدو أن هذا الباب الثامن الذي أضيف للأبواب السبعة قد ألغي بعد فترة من الزمن، حيث ذكر الرحالة التركي "عبد القادر جامي" الذي زار سوكنة سنة 1907م إن للمدينة سبعة أبواب. ويؤيد ذلك أيضا ما ذكره محمد بشير نجومه سنة 1914م في تقريره، وهذه الأبواب السبعة هي: باب العمشة – باب جرانه – باب النجومات – باب الغنم – باب ثانيه – خوخة القاضي– خوخة الراشدي.

وإذا ما أمعنا النظر في أسماء الأبواب نلاحظ أن أغلبها منسوب للأسر أو العائلات التي كانت تقيم قرب الباب والمسئوولة عن أمر فتحه وقفله أمام القادمين والمغادرين، وحسب رواية نجومه فإن الأبواب كانت تفتح أثناء ساعات النهار وتقفل أثناء الليل.

ونلاحظ أيضا أن هناك باب منسوب إلى الحيوانات لأن هذا الباب وفقا للروايات المحلية كان مخصصاً فقط لدخول الحيوانات الأهالي التي كانت ترعى في البادية. أما عن خوخة القاضي والراشدي، فهما أصغر الأبواب جميعا لأن كلمة خوخة بلهجة سوكنة معناها

الباب الصغير جدا. وقد ذكر الرحالة جون فرانسيس ليون G.F. Lyon في رحلته أن هناك باب مخصص لدخول القوافل التجارية المحملة بالبضائع.

وعلى أي حال فقد كان سور سوكنة مبني على شكل هندسي ذي سبعة أضلاع جعلت به فتحات صغيرة لإطلاق النار ولأغراض عسكرية أخرى كالمراقبة وغيرها.

ما من شك أن سور المدينة قد بني بهذه الطريقة الهندسية الفنية الدفاعية كان الهدف منه أولاً هو حماية المدينة من غارات القبائل المجاورة، ثم لحماية قوافل وأموال التجار القادمين للمدينة من غارات أقوام الصحراء، وقد حرص الأهالي في تلك الفترة دائما على ترميم السور والعناية به، حيث يشير محمد بشير نجومه إلى أن الأهالي قاموا سنة 1840م ببناء دعامات قوية لسور المدينة أثناء تكرر هجمات عبد الجليل سيف النصر على المدينة، ومع مرور الزمن فإن ارتفاع السور وحجمه بدون شك قد تأثر بالعوامل المناخية والظروف السياسية التي مرت بها المدينة، ومن ثم فإن ارتفاع السور ووفقا للروايات الشفويةالمحلية كان أعلى بكثير مما هو عليه الآن، وبالتالي فإن إعطاء أرقام وقياسات لارتفاع السور وعرضه أمر صعب ولا يمكن تقريره جالياً– ولكن يمكن أن نذكر هنا أن ارتفاع السور كان يتراوح ما بين مترين ونصف إلى ثلاثة أمتار، وعرضه من نصف متر إلى متر في بعض النواحي، مبني من حجر الكلس أو حجر الطين.

مما لا شك فيه إن مدينة سوكنة كانت مشيدة بسياج قوي ومتين، ولم تكن تهمل المدينة في صيانة أسوارها إلا في فترات قليلة من تاريخها، ومع ذلك فإن حرص الأهالي وإدراكهم لأهمية السياج من مدينتهم جعل من عملية الترميم والبناء تستمر إلى أواخر العهد الإيطالي في ليبيا.

إن أهم ما يميز سور مدينة سوكنة عن بقية أسوار المدن في الولاية هو وجود ثلاثة وثلاثين برجًا بنيت على طول سور المدينة. وهي أبراج مبنية على أشكال ما بين المربعة ونصف دائرية. حيث تبرز ثلاثة من أضلاعها خارج ا لسور، والضلع الرابع أو الجزء الرابع من البرج يكون على امتداد اتجاه السور، ويتراوح ارتفاع الأبراج ما بين مترين

ونصف إلى ثلاثة أمتار ونصف، وأما مساحتها فإنها تتراوح ما بين 4 × 4 إلى 6 × 5 مترًا.

ويقول عدد من أهالي المدينة "…. قلعة كبيرة بعض جهاتها تخرب يمكن للإنسان الإشراف منها على كل جهات الواحة" . ويبدو أن حالة الخراب هذه قد حلت بالقلعة في سنة 1260هـ/1844م. فقد أرسل الأهالي العديد من الرسائل إلى الوالي في طرابلس طالبين مد يد العون لترميم القلعة والاهتمام بها، وقد صرفت مبالغ من الولاية وأمر الوالي بالعناية بالقلعة وترميمها. ولكن ذلك لم يحدث إلا في أواخر العهد العثماني الثاني.

ومهما يكن من أمر فإن قلعة سوكنة التي تتوسط تماما المدينة تعتبر فهي أعلى وأكبر مبنى بها، حيث كان بها مقر الحاكم أو القائمقام ومدير القضاء، التي كان بها يجتمع المجلس البلدي، وتقام المحاكم، وتجمع الضرائب.

فهي تبلغ مساحتها تقريبا 35×45 مترا وارتفاعها يتراوح ما بين 40 – 45 مترا، بها خمس حجرات ومخازن وبئر ماء، وحجرة كبيرة بعض الشيء قرب مدخل القلعة ربما كانت المكان الذي تعقد به الاجتماعات، لأنها أكبر الحجرات جميعا وأخيرا فإن للقلعة ساحة أو فناء تفتح فيه جميع الحجرات.

نظرا لكون منازل المدينة مبنية بشكل متلاصق الجدران فإن شوارع المدينة وفضائها كانت عشوائية المظهر، تختلف من حيث الطول والاتساع من شارع لآخر، ومن حي لآخر، إلا أنها في عمومها ضيقة بعض الشيء، وليس كما وصفها جون فرانسيس ليون G.F. Lyon بأنها ضيقة جدا. إذ يتراوح عرض بعض الشوارع ما بين مترين إلى ثلاثة أمتار وقد تصل إلى خمسة أمتار، كما أنها لم تكن على استقامة واحدة بل تكثر فيها الانعطافات، وكان بعضها مسقوفا وليس بها سوى كوة لإدخال الضوء.

وعلى أي حال فإن شارع باشاله(2) يعتبر أطول شوارع سوكنة حيث يبدأ من زنقة(3) الفراحيت(4) إلى ساحة القصر، ويعتبر هذا الشارع أيضا أعرض شوارع سوكنة، وأما أضيق شوارع سوكنة فهو شارع عِرّقِيق الذي لا يتعدى اتساعه مرور رجل واحد فقط من خلاله. ومن أهم شوارع سوكنة التي يمكن أن نعتبرها رئيسية هي شارع باشاله، الطوالبية –

عرقوب – الفوارسية – الدلاوحه – ونزريك – الرغويات – بنشكي – بن عيسى – الهميلية (5).

ويزين تلك الشوارع الأقواس التي يبلغ ارتفاعها من ثلاثة إلى أربعة أمتار، ولا يكاد يخلو شارع في سوكنة منها، وهي على شكل نصف دائرة، كما يزين الشوارع أيضا تلك الممرات العلوية التي تعرف عند الأهالي باسم الخطامات. وهي عبارة عن ممر مسقوف يربط بين بيتين من أعلى الشارع وعادة ما يكون أصحاب البيوت التي تربط بينها تلك الممرات من ذوي الأسرة الواحدة أو أقارب، وكانت هذه الممرات تستخدم في العادة من قبل النساء، وهي طراز معماري تنفرد به سوكنة عن بقية الواحات والمدن الليبية بصفة عامة، ويتراوح طول هذه الممرات من مترين إلى ثلاثة أمتار حسب عرض الشارع.

وتنتهي شوارع سوكنة في العادة بساحات واسعة تعرف عند الأهالي باسم – الوسعاية – أو السماح– والتي غالبا ما يكون بها آبار للمياه، ومن أشهر تلك الساحات – الهميلية – الصديقية – الجباره – حلالـه – وسعاية الجامع العتيق – السنوسية – سماح القصبة. ويعتبر أكبر تلك الساحات ميدان أو سماح القصبة ثم ميدان السنوسية، ويعد ميدان بئر الصديقية أصغر الساحات جميعا.

وتنتشر البيوت حول تلك الساحات وتكون ملتقى لأبناء وبنات البلدة لتبادل الأخبار، وإن كان بعض من تلك الساحات ما كان يستخدم لبيع المواشي واستقبال القوافل.

كانت البيوت السوكنية بطابقيها الأرضي والعلوي محط انتباه الرحالة الأجانب الذين زاروا سوكنة، حيث تحدث عند هذه البيوت كل الرحالة الأجانب دون استثناء ودونوا عدة ملاحظات هامة تعكس مدى إعجابهم بطراز المدينة المعماري الفريد في ذلك الزمن.

3– قلعة أبو نجيم:

أبو نجيم أو (جولا) معلم اثري قديم ومهم وهي قلعة تاريخية قديمة[5] جدا تعود إلى عصور ما قبل التاريخ، كانت مثل مدينة سرت لكنها لم تتطور، لعل أهم الأسباب كونها مِنطقة معزولة، وما حولها مِنطقة جرداء.

لقد لعبت هذه القلعة المنطقة دوراً مهماً في العهد الروماني باعتبارها إحدى النقاط الحدودية الكائنة على مشارف الصحراء التي شيدت فيها الحصون والقلاع القديمة.

اسمها القديم (جولا Gholaia) وورد ذكرها في كتاب التاريخ الطبيعي للمؤرخ الروماني بلينيوس، وهي بوابة الطريق الى جرمة القديمة، ومازالت هذه المنطقة في حاجة إلى عمليات بحث وتنقيب والدراسة للكشف عن مزيد من كنوزها الدفينة.

أبو نجيم مِنطقة يصعب العيش فيها، مناخها شديد الحرارة حسب ما أورده الأهالي حيث تهب عليها في أغلب أيام السنة رياح محلية ساخنة مُحملة بالأتربة (القبلي)، مِنطقة خالية من مظاهر الحياة ووحيدة في الصحراء، يُضرب بها المثل الليبي الشهير (خلا أبونجيم).

وعلى الرغم من قساوة الطبيعة عليها إلا أن لها صدراً حنون ودافئ تحتضن به أولادها كلما قابلتهم من بعد غياب.

قلعة أبو نجيم

قلعة أبو نجيم

سجلت لنا الطبيعة بملامحها القاسية وكثبانها الرملية ملامح الشيخوخة المبكرة على محياها، قال فيها يوما أحد أبناء الحمادة سلامة محمد الربيعي (كل من يشرب من مائها يقوده الحنين لها .. حتى الابل التي تشرب من ابارها تجوب الحمادة بحثا عن الكلى ثم تعود الى تلك المنطقة).

الوصف الفني:

تقع على طريق فزان الذي يحاذى مرتفعات الحمادة الحمراء من ناحية الشرق، وتعتبر بوابة الطريق إلى جرمة القديمة، وعلى مصب وادي (بي الصغير) وهو احد روافد وادي (بي الكبير)، أقرب المناطق السكنية لها منطقة القداحية والتي تبعد عنها بمسافة تربو عن 150كم وكذلك منطقة الهيشة (أبو قرين) 150كم، وتبعد عن مدينة سرت بحوالي 280 كم عبر الطريق الساحلية.

أخبرنا أحد أصدقائنا من مدينة سرت، بأن هناك طريق صحراوي مختصر لكنه وعر، من مدينة سرت إلى منطقة أبو نجيم يمر عبر وادي جارف، هذا الطريق لا تستطيع عبوره إلا الجِمال أو سيارات الدفع الرُباعي.

انطلقنا بالسيارة عبر الطريق الساحلي من مدينة سرت حتى منطقة الـ 60 كم، ثم تفرع الطريق وتعرج يسارا نحو طريق يُعرف باسم طريق النخلة، نسبة لنخلة وحيدة موجودة هناك، واستمرينا في هذا الطريق مسافة 120كم، ومنه أتجهنا نحو طريق سبها، وبعد 100كم وصلنا إلى مِنطقة أبو نجيم.

لدى دخولنا شاهدنا شمال مِنطقة أبو نجيم القديمة بحوالي 30 كم، مِنطقة جديدة بُنيت حديثا، هي مِنطقة أبو نجيم الجديدة، حيث شيدت بها مباني ومرافق حديثة في ثمانينيات القرن الماضي.

وبعد رحلة شاقة وصلنا إلى قلعة أبو نجيم (الكنز الدفين) الذي يرجع تاريخها إلي العصر الروماني في ليبيا، وهي احدى القلاع الرومانية القديمة التي تم بنائها الى ضفاف نهر، فالمعالم الموجودة على الوادي التي بنيت عليه توحي بأنه كان نهر حيت منسوب المياه عن سطح الارض يبعد اقل من متر حاليا، شاهد من الشواهد التاريخية، ومن بين أبراج التخوم التي شُيدت في مواجهة القبائل الصحراوية في شمال أفريقيا، تعرف لدى البعض باسم (الفورتي) وتقع على الطريق الرئيسي المؤدي للجفرة.

على بعد 30 كم من جهة شمال القلعة توجد قلعة تسمى (سرسي) والادهى والمميز في الموضوع أن من يقوم بإشعال شعلة من قلعة ابو نجيم يمكن أن يُرى من قلعة (سرسي) وكذلك من يقوم بإشعال شعلة من قلعة (سرسي) يمكن أن يرى من قلعة (قرزة) وهكذا فأن الرسالة التي يراد لها أن تبرق من (ابو نجيم) يمكن أن تصل إلى الجهة الرسمية أنذاك في خلال دقائق.

ظلت هذه القلعة صامدة صمود أهلها على الرغم من عوامل التعرية التي تتعرض لها، وزحف الرمال عليها أو ما يعرف بـ (رملة الكردون).

أيام الإمبراطور سبتيموسسويروس، حيث كانت القبائل الليبية المنتشرة في الصحراء دائما ما تهاجم الرومان، هذه القبائل كانت تُكون صُعوبة على أي من يتواجد في ليبيا خاصة الرومان والبيزنطيين.

لكن الكنعانيين تأقلموا معهم فترة من الزمن، لأن التعامل الذي كان بينهم، كان تعامل تجاري ومادي، وتأقلموا كذلك مع جيوش المسلمين التي جاءت أثناء الفتوحات الاسلامية.

ولحماية مصالحهم أنشاء الرومان خط دفاعي يمتد من منطقة القاريات مرورا بقرزة وأبو نجيم على خط المنطقة الصحراوية الجنوبية لمدينة سرت حتى مدينة اجدابية، في هذا الخط قاموا ببناء وتشييد القلاع والحصون ليستوطن فيها جنودهم، استصلحوا لهم الاراضي لأنشاء المزارع والاستقطاعات، وكانت الفكرة منها أن لا يبرح الجنود مكانهم ويدافعون عن هذه القلاع ويكونوا حاجز بين منطقة الرومان الساحلية والقبائل.

هذه القلاع كانت مراكز عسكرية وحاميات لمناطق عسكرية وخط دفاعي طويل أطلق عليه أسم حزام الصحراء، ومن ضمن المخلفات التاريخية كانت قلعة غولا، بالرغم من أن بقية القلاع والحصون معظمها دمر.

أسست الفرقة الاغسطية الثالثة (سميت بهذا الاسم نسبة إلى الإمبراطور أغسطس قيصر مؤسس الإمبراطورية الرومانية) قبل زمن الإمبراطور سبتيموسسويروس في العام 201 م قلعة في هذا الموقع أطلق عليها أسم غولا Gholaia وهي أسم لفرقة قوة عسكرية خاصة من الفرسان تحت قيادة قائد المائة)، وأحد القلاع التي أنشئت على تخوم الصحراء خلال الفترة الرومانية.

بنيت قلعة (جولا) في حوالى سنة (200–201م) أي في زمن حكم الإمبراطور (سبتيموسسويروس) الذي أولى عناية خاصة بما سمى منطقة التخوم.

الوصف الجمالي:

في تكوينها الفني الجمالي يمكن وصفها بأنها قلعة مستطيلة الشكل إبعادها القياسية 91 متر في 136 متر و بمساحة قدرها 1.28 هكتار، لها زوايا مستديرة وأربع

بوابات، وقد وضعت البوابات في الجانبيين الطوليين للسور وهما بوابة شمالية وبوابة جنوبية كما يوجد بها بوابتان شرقية وغربية.

الملاحظ أن ثلاث من البوابات ذات نوعية واحدة في التصميم، حيث تحتوي على قوس وتحيط بها من الجانبين أبراج مستطيلة، وواجهتها ناحية الشرق.

يتراوح سمك السور الخارجي من 2.40 متر إلى 2.25 متر، بينما يصل ارتفاعه إلى 5 أمتار، واسُتعمل في بنائه الحصى والملاط وطلى بالجص، أما الحجارة المربعة فقد اسُتعملت في بناء الأجزاء السفلية من البوابة الشرقية، مع وجود برجين يتقدمان قليلاً من السور بزوايا مائلة في جمالية مميزة، وهى ذات ممر يتسع لمرور عربة واحدة فقط، ونفس الأمر بالنسبة للبوابات الثلاث الأخرى، فعلى جانبي كل منهما برج مربع الشكل يبرز قليلاً عن خط سير السور، ويلاحظ أن الطابق الأرضي لكل برج يحتوى على نافذتين واسعتين، أما الطابق العلوي من تلك الأبراج في البعض منها نافذتان والبعض الآخر نافذة واحدة، وقد تأكد من خلال الشواهد الأثرية التي عثر عليها بالموقع أن ارتفاع هذه الأبراج كان يصل إلى 8 أمتار، داخل السور يوجد مبنى مركز القيادة، وهو عبارة عن مجموعة مكاتب ومستودعات للأسلحة، وبعض الغرف الأخرى يحيط جميعها بفناء كبير، وقد تم التعرف على غرفة المكتبة بمنضدتها ومقاعدها، ومن الملاحظ أن هذا المبنى قد مر بأربعة مراحل على الأقل، شهد خلالها إعادة بناء وتعديلات هندسية وفنية، وتوجد حمامات للجنود من خلالها تم الوصول إلى الكثير من المعلومات عن الموقع، وقد عثر بهذه الحمامات على حوض سباحة إبعاده 3 أمتار طولاً و 2.55م عرضاً و141 سم الحد الأقصى لارتفاع المياه، ولا شك انه كان هناك نظام معين يسير عليه العمل في هذه الحمامات التي ينبغي أن تزود بالمياه والوقود والإشراف على نظافتها، ومن بين ما عثر عليه في الموقع عدة مرافق منها غرفة لقائد الفرقة الأغسطية الثالثة في جولا ومخبز لأعداد الخبز، ومخزن للحبوب.

منذ عام 201م وحتّى عام 237م، أقامت بالمنطقة حامية عسكريّة رومانيّة قوامها لواء روماني من الفرقة الأغسطيّة الثّالثة وفرقة من الفرسان تحت قيادة قائد المائة، إلاّ أنّه

بعد حلّ الفرقة الأغسطيّة الثّالثة عام 238م لم يبق بالمنطقة إلاّ فرقة الفرسان السّالفة الذّكر، وكانت تحت قيادة قائد العشرة، ولكن بعد إعادة الفرقة الأغسطيّة الثّالثة من جديد عام 253م لم تعد هذه الفرقة على أغلب الظنّ إلى المنطقة لأنّ فرقة الفرسان المقيمة في غولا ظلّت تحت قيادة قائد العشرة.

إلا أن معظم الآراء ترجح انها تُركت نهائياً حوالي العام 263 م بسبب الاضطرابات التي اجتاحت الإمبراطورية الرومانية في تلك الفترة، وتدل بعض البقايا الأثرية على أن مباني القلعة قد استغلت من قبل الأهالي خلال القرنين الرابع وأوائل القرن الخامس وذلك إلى أن غمرته الرمال، من ناحية أخرى كانت تحيط بالقلعة بعض المباني الأثرية الأخرى يعتقد أن أفرادا من قبيلة (النسامونيس) كانوا يقيمون فيها، وخمسة معابد ثلاثة منها مكرسة إلى كل من المؤله (جوبيتر آمون) و(مارس كانافار) و(فانامون)، وتؤكد الشواهد الأثرية وجود علاقة وطيدة بين قلعة جولا وقبائل الجنوب، كذلك أثبتت تلك الشواهد وجود صلة متينة بينها وبين مدينة لبدة، فضلاً عن علاقتها مع القلاع الأخرى سيما القريبة منه وذلك باعتبارها مكاناً مناسباً لاستراحة القوافل والمسافرين.

وكان المستكشف والرحالة والرسام البريطاني الكابتن جورج فرانسيس ليون George Francis Lyon أول من اكتشف القلعة أثناء رحلة مروره بالواحة في العام 1818م، لقد رأى الكثير من معالم القلعة التي ما تزال باقية آنذاك مثل الأبراج التي انتزعت أحجارها لبناء القلعة (العثمانية) وترك لوحة فنية كان قد رسمها للبوابة الشمالية للقلعة وتعد اللوحة من المصادر الأساسية لدراسة بناء القلعة وتصميمها.

وذكر في كتابه (من طرابلس الى فزان) الذي قام بتعريبه الدكتور مصطفى جودة من جمهورية مصر العربية، رحلة مروره بالواحة عديد التفاصيل، قال:استأنفنا السير في السادسة صباحا، ومررنا بوديان هيت (قد يكون يقصد وديان سوف الجين التي دونها باسم هيت) وزمزم وبكل منها أعشاب شوكية تغذت عليها جمالنا، ويمتد وادي زمزم الى مسافة كبيرة ناحية الشمال حتى يلتقي بخليج سرت، وفي الواحدة والنصف بلغنا بئر أبو نجيم بعد ان عبرنا الوادي كله، وماء عين أبو نجيم لا تختلف طعما أو رائحة عن الماء الآسن

المتعفن، وتنفجر من العين في طبقة طينية سوداء ولا يزيد عمقها عن خمسة اقدام، وعلى بعد نصف ميل من البئر يرتفع حصن روماني قديم بين تلال رملية متوسطة الارتفاع، والحصن مستطيل الشكل ويوجد في منتصف كل حائط من حوائطه بوابة، يرتفع على جانبيها برجان قويان، ولا يرى سوى حائط واحد، أما الحوائط الاخرى فربما سقطت او دفنت وسط الرمال، والصخور التي شيد منها الحصن ذات حجم كبير ككل البنايات الرومانية وهي من الجرانيت الاسود، ووسط الحوائط تنتصب أعمدة قوية تعطي الاحساس بأنها كانت تحمل بناء هائلا، ويبلغ ارتفاع الاعمدة حوالي عشرة اقدام، ووسط الاطلال تبدو فوهة بئر مطموسة تماما، وتمتد الحوائط من الشرق الى الغرب حوالي مائتي خطوة، وربما يجدر بي ان اقول تمتد قمم الحوائط، فالرمال تغطيها تماما في بعض المواقع، ويبلغ طول الحوائط من الشمال الى الجنوب حوالى مائتي وخمسون خطوة، ويبدو ان المسلمين قد استخدموا الابراج الشمالية، فما زالت تحمل بعضا من بقاياهم، ويقال أنه كانت هناك كتابات تتصدر مداخل المبنى، وما زالت كتابات البوابة الشمالية على حالتها، ولابد أن البوابات جميعها تحمل الكتابات التالية.

IMP. CAES. L. SEPTIMO. SEVER. P. 10. PERTINACI. AVG. TRPOTV. III. IMP. GSIIPPET. IMP. CAES. M AVREL. 10 AVTONIINO V RI IIII. ET SEPTIMINO CAE AVG: O. ANICIO. FAVTO. LEG. AVGSTORRM. CONSVLARI. IUO. III. AVV. P. V.

وتحت هذه الكتابات حملت الحوائط ذات يوم تماثيل محفورة على هيئة نسور ضخمة إلا انها الآن متهدمة تماما، ولا يبدو منها ما يشبه هذا الطائر في كثير او قليل.

الاستاذ خالد الهدار أستاذ التاريخ في جامعة بنغازي والباحث والمختص بدراسة الاثار الليبية قدم لنا وصفا لأبرز معالم هذه القلعة الرومانية، ونقل لنا مخطط الحصن مشيرا الى جهود الباحث الفرنسي البروفسّور رينيهريبوفا (René Rebuffat) الذي قام بثماني حفريات في المعسكر الرّوماني في مدينة جولا على تخوم منطقة أبو نجيم الحاليّة، والذي شغل رئاسة البعثة الفرنسية لاستكشاف منطقة ما قبل الصحراء (شبه الصحراء) الليبية،

حيث كان رئيس الفريق الذي عمل على التنقيب واكتشاف قلعة جولا وذلك خلال الحفريات التي اجريت به ما بين العام 1967م والعام 1980م، وتمخضت عن ازالة الرمال على هذه القلعة الرومانية، وتعرف على تسميتها القديمة غولا Gholaia.

كذلك وجد بين الشقاف المخطوط الذي تمكّن الباحثين من تحديد تاريخه تسع قطع، واحدة تحمل تاريخ عام 253م وأخرى تحمل عام 254م وسبع تحمل عام 259م، وهذه القطع الأخيرة تعتبر آخر الوثائق المكتوبة التي تتحدّث عن (جولا) في فترة احتلالها من قبل الرّومان، لكن الحفريات التي سوف تجرى بالمنطقة ربّما تكشف عن شقاف أحدث عهد، ويوجد بين الشقاف المهمّة 146 قطعة تتحدّث 113 منها عن الأمور العسكريّة، وقد وجدت بالجزء الجنوبي من مركز القيادة، وهذه المجموعة من الشقاف أعطتنا أسماء العديد من الجنود، وقد وجد بعد دراسة هذه الأسماء أنّ حوالي 60% منها أسماء ليبيّة تحمل أسماء ترجع للأسرة الإمبراطوريّة مثل لقب (أوريليوسجوليوس) و40% تحمل أسماء عائلات تتكرّر بكثرة في منطقة شمال أفريقيا مثل لقب (إيميليوس) و(كايكيليوس) و(كورنيليوس) وبعض هذه الأسماء تحمل ألقاباً محلّيّة مثل (حنابعل) و(تونيلا) و(بوبيوس) و(بوزوريس)، وتوجد أيضاً أسماء محلّيّة أخرى مثل (كريسانس) و(داتيوس) و(دوناتوس) و(روجاتوس).

هذه الشقاف توجد الآن بمتحف طرابلس، ومجموعة من الشقاف المخطوطة لم ينشر عنها بعد كتبت بالأبجديّة الكنعانية واللاّتينيّة في نفس الوقت، وقد استعملت هاتان الأبجديّتان في كتابة النّقوش النذرية وكتابة معظم النّقوش التي تتعلّق بالحياة اليوميّة العامّة، ولم يكن ذلك متّبعاً في كتابة النّقوش والشقاف في المناطق المأهولة بالسّكّان النّاطقين باللّغة الكنعانية فحسب، بل إنّ السّكّان اللاّتين أنفسهم كانوا يخلطون أثناء كتابة نقوشهم بين الأبجديّة الكنعانية، فقد وجدت في جولا رسالة كتبت بالأبجديّة اللاّتينيّة والكنعانية، ومن المعتقد أنّ هذه الرّسالة كتبت بيد كاتب أحد قادة الفصائل في جولا، ومن المعروف أنّ الأبجديّة الكنعانية تزيد عن اللاّتينيّة بالحرفين (ش) و(ص)، وقد استعمل الجنود المقيمون بمدينة جولا الحرفين (ش) و(ص) في كتابة أسماء بعض الأشخاص والمواقع التي تحتوي

على حرف من هذين الحرفين، مثل الموقع المعروف قديماً باسم (ايشوبا)، وفي كتابة مقياس من المقاييس يسمّى (ايشداريم).

ظلت هذه القلعة صامدة صمود اهلها على الرغم من عوامل التعرية التي تتعرض لها، وخاصة زحف الرمال عليها عبر السنين.

ولكن ما اثار انتباهي هو عمليات الانهيار التي بدات تتزايد على واجهتها الامامية، دون أي أهتمام بها.

كل هذا التنوع المنسجم يرسم لوحة جميلة وفريدة لهذا البلد الكبير المعطاء، تنوع غزير يضع ليبيا بين المناطق السياحية المهمة في العالم فمن خلال المشاهدة لبناء القلعة نلاحظ التنسيق الجمالي في توزيع المباني والأسوار، الأمر الذي ينتج لنا التناظر والتكرار والتباين والوضوح في توزيع الأبواب والنوافذ يوحي بالقوة في التعبير والدقة والانسجام، كما أن سمك الجدار في الأسوار يمنح العديد من نقاط الانسجام والتوافق في العناصر مع بعضها البعض فيمكن المشاهد من قوة الدلالة والرمزية لما نشأة من أجله هذه القلعة.

4- مدينة زويلة:

من أهم المدن الصحراوية[6] في ليبيا والتي تعرفها المنطقة والتاريخ ولكن قليلاً من الناس يعرف ذلك فهي كانت عاصمة لفزان لأكثر من 500 سنة في العصر الإسلامي وحتى قبله كانت كذلك المنطقة الشرقية لفزان في الأيام الأخيرة والتي قبل الإسلام ولأن الرحالة والمؤرخين للجرمنت غير المسلمين لم يبخلوا علينا بذكر شيء من أخبارها وأنه هناك معلومات ذات قيمة ونفع أكيد! ولكنها لم تكن كافية وإذا كان صاحب كتاب مختصر تاريخ فزان قد أطلق عليها هذا الاسم الإغريقي [كنوسوس الصحراء][*].

لأنهم كانوا يدعون أن البيزنطيين هم بناة هذه المدينة ولكن المؤكد أنها بنت قبلهم بزمن فإن المدينة قديمة قدم التاريخ للمكان، ذلك أن جل من تكلم عنها أكد هذا حيث يقول

(*)[حول إطلاق هذا الاسم على مدينة زويلة] انظر: محمد سليمان أيوب وكتابه مختصر تاريخ فزان، ص115.

أحدهم [وتعتبر زويلة أهم مركز سكني بين المواقع القديمة في المنطقة الشرقية قبل أن تنشأ مرزق بفترة طويلة](**).

كذلك توجد إلى الشرق من المدينة بمسافة 3 كلم تقريباً تلك القبور العظيمة لأولئك الصحابة الذين لم تعرف أسمائهم ولكن قبورهم ترى من نفس القلعة السابقة كل هذه المعالم الإسلامية والتاريخية باقية تعانق الزمن وتنير المكان في (بلد الشريف) كما قال عنها أحدهم منذ ما يقرب على 201 سنة خلت(7) حيث اجتمعا فيها الشرف مع الكرم من رجال هذه البلدة أما زويلة الثالثة والتي تقع إلى الجنوب مباشرة من زويلة الثانية فإنها أحسن حال اليوم من حيث الشكل العام وطريقة البناء ونوعيته وتعدد الطوابق بها والمساجد أو المسجد الجديد بها والمحلات التجارية على الطريقة الحديثة وغير ذلك.

أما لماذا سميت بهذا الاسم "زويلة" بالإضافة إلى ما ذكرنا فإنه يقال أن أحد القبائل العربية كانت تسكن في زلة بعد أن جاء البيزنطيين إلى برقة ثم زحفوا نحو الجنوب حتى وصلوا منطقة سرت حيث كانت تلك القبائل ثم إلى زلة حيث كانت تسكن أحدها فأجلوها منها فجاءت هذه القبيلة إلى هذا المكان وقامت بإنشائها فيه وسمتها زويلة تصغير لزلة المفقودة منهم(*) وهذا تعليل ربما فيه شيء ينظر كما هناك قول بأن زويلة كانت قبل حملة كونيليس بالبوس وكانت تدعى شيلالا(**) وهذا القول لم يتأكد بعد لأنه من إدعاءات البيزنطيين.

الوصف الفني: تتكون زويلة من ثلاثة مواقع وهي زويلة الأولى والتي كان يتوسطها الجامع العتيق والباقي منه أجزاء من بعض الحوائط لأنه تعرض للتخريب مبكرا وأن المدينة كانت

(**)انظر: فريدريك هونجان وكتابه رحلتان عبر ليبيا، ص126، وكذلك قول أحدهم عن زويلة (وأوصلنا الرجال إلى منزل فخم وجاءنا عدد كبير من الزوار ومعهم المؤن من كل الأصناف والأوصاف...) انظر كتاب رحلة من طرابلس إلى فزان، ص164 جون فرانسيس ليون.

(*)انظر: محمد سليمان وكتاب مختصر تاريخ فزان، ص86.

(**)أنظر: غرانسياني وكتابه إعادة احتلال فزان، ص30-248.

حوليه من الغرب والشرق والجنوب فيما يقال عنها من قبل علماء والآثار والذين يحتجون على بناء المدينة الحديثة على هذا المكان لأنه لم تجرى له حفريات علمية لمعرفة الخفايا التي كانت بهذه المدينة العظيمة والتي قال عنها أحدهم [وهي مدينة غير سورة في وسط الصحراء وهي أول حد لبلاد السودان وبها جامع وحمام وأسواق ويجتمع بها الرفاق من كل جهة](***) أما المدينة الثانية فهي التي باقي منها القلعة والمسجد العتيق الثاني وبعض المساكن المبنية بالطوب اللبني والتي تعد خليفة لمدينة الأولى حيث زحفت نحو الشمال عنها والتي عرف الناس بها زويلة الحالية ونسوا زويلة القديمة برغم بقاء ذلك المسجد الجامع بأطلاله ينادي حتى أنه اعتقد أغلبنا بأن هذه زويلة وكفى ولكن هذا الموقع يختلف عن سابقه حيث السور والمباني و...أما زويلة المدينة الثالثة فهي الأحدث بناء في المكان الأقدم إسكاناً أي أنها بنيت على أنقاض المدينة الأولى الأمر الذي جعل الأسف من المؤرخ بقدر فرح السكان حيث كان المخطط الحديث الذي بنيت فيه المساكن وما تبعها من مرافق خدمية الأمر الذي أخفى الماضي تماماً من حيث الوجود المكاني أما التاريخي فإن ذلك فتح باب البحث أكثر من ذي قبل.

الوصف الجمالي:

تقع بلدة زويلة[8] إلى الشرق من مرزق بـ140 كيلومترا تقريباً وهي مدينة يحيط بها سور عال وفي وسط المدينة حصن عتيق مبنى بقوالب ضخمة من اللبن ومساحة القلعة تقدر بخمسة آلاف متر مربع وإلى الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة يوجد بقايا المسجد العتيق الذي لم يتبق منه سوى جزء من الحائط الشرقي والمنارة أما باقي المبنى فقد أنهار وزال تقريباً فيما عدا الأساسات.

(***)أنظر محمد سليمان، مختصر تاريخ فزان، ص87.

قلعة زويلة(9)

وإلى الجنوب من المسجد عثر على جبانة ترجع للعصر البيزنطي التأخر. أما إلى الجهة الشرقية من المدينة فتوجد جبانة تتكون من سبعة من القبور الكبيرة وهي مبنية على هيئة ابراج أو صوامع مربعة ذات نوافذ وأبواب والمبنى مفرغ من الداخل أما الجدران فمن قوالب اللبن وهي في بعض الأحيان ملبسة من الخارج بقوالب من الحجر الأحمر. ويعلو هذه الصوامع قباب شبيهة بالقباب الفاطمية. وهذه القبور هي مدافن آل الخطاب سلاطين زويلة.

ويرجع إنشاء زويلة إلى قبيلة هوارة وهي من القبائل التي كانت تسكن على سواحل سرت وقد اقامت القبيلة عاصمة لها في زلة إلا أن البيزنطيين في أثناء صراعهم مع السكان المحليين هاجموا هذه البلدة ودمروها فهاجر الهواريون بجمالهم إلى الصحراء حيث اقاموا لهم مركزا جديدا في زويلة ويصف البكرى في القرن الحادي عشر الميلادي هذه البلدة بقوله "أنه لا سور لها". أما في القرن العاشر فقد اقامت أسرة بني الخطاب سلطنة زويلة التي تولاها صنفل بن الخطاب وظلت هذه الأسرة في حكم البلاد تضرب الدنانير الذهبية باسمها وترعى شئون الصحراء حتى خربها قراقوش الأرمنى سنة 1174م. في غارته المفاجئة التي قام بها.

نتائج البحث:

اتضح من خلال الدراسة والإطلاع المباشر على أغلب المدن والقلاع والقصور بما يلي:

- إن فنون العمارة فن جميل له خصوصياته في قدرة تفاعله مع كل تطور وتتشكل خدماتها علاقة وثيقة بين كل القلاع والقصور.
- بعض فنون العمارة قد عالجت الكثير من مظاهر الإبداع واحتوت على دلالات رمزية مما تقدمه من إمكانات عالية باستعراضاتها الفنية والجمالية من خلال القيم.
- تتميز فنون العمارة على الدوام بمميزات خاصة من الإبداع والتذوق جعلته على الدوام قابلاً للبحث العلمي.
- القيم الفنية والجمالية في فنون العمارة يكون أثرها في تنمية الذوق الفني العام بشكل مباشر.
- تحقق فنون العمارة إيقاعات إبداعية متنوعة إلى حد كبير في تحقيق وحدة العمل الفني، وإزالة ما قد ينشأ فيه من صراع بين المتناقضات مما يساهم في رقي وتنمية الذوق العام.
- إن الإيقاع الفني في فنون العمارة له قيم فنية وجمالية عالية من خلال تناسق الخطوط وتكرارها وتناغمها داخل العمل الفني.
- إن دراسة القيم الجمالية والتشكيلية في فنون العمارة تعمل بالمحافظة على التراث الليبي الأصلي، وذلك من خلال استلهام البحث العلمي لعمل تصميمات زخرفية.

التوصيات:

1- تشجيع محاولات التجريب في البحث العلمي في مجال فنون العمارة من أجل استنباط أشكال جديدة منها تتفق ومفاهيم العصر وقيمه الفنية والجمالية.

2- العمل على تطوير المكتبات وتزويدها بالوسائل التعليمية الحديثة من أفلام وثائقية وأجهزة عرض وأجهزة حاسب آلي وشبكات انترنت بالإضافة إلى الرسائل والأبحاث والكتب العلمية المتخصصة في مجال الفنون والعمارة حتى تتحقق الفائدة.

3- تشجيع التواصل مع المؤسسات الأكاديمية الليبية والجامعات والدولية لتبادل الخبرات الفنية والاكتشافات العلمية في مجال الفنون التشكيلية عن طريق المؤتمرات والندوات والمحاضرات والزيارات وإقامة معارض متخصصة في الفنون.

4- القيام بالمزيد من الدراسات البحثية والتحليلية في مجال فنون العمارة والتراث في ليبيا.

5- يوصى الباحث كافة المؤسسات ذات العلاقة من مدارس عامة ومدارس خاصة وأقسام النشاط العام المختلفة ضرورة إقامة معارض فنية خاصة بالأعمال الفنية بشكل دوري مستمر.

6- يوصى الباحث الاهتمام بتدريس الفنون في مختلف مراحل التعليم بأسلوب تطبيقي.

هوامش البحث

(1) رجب نصير الأبيض: مدينة مرزق وتجارة القوافل الصحراوية خلال القرن التاسع عشر "دراسة في التاريخ السياسي والاقتصادي، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية سلسلة الدراسات التاريخية رقم 25، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، 1998م، ص30".

(2)محمد سليمان أيوب: معالم أثرية من جنوب الجماهيرية، منشورات مصلحة الآثار، 1993م، ص16.

(3) عادل الغرياني: ملامح عامة عن العمارة والفن المعماري في مدينة سوكنة.

(4)حبيب وداعة الحسناوي، الحياة العلمية في فزان في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ترجمة حياة الفقيه العالم الحصيري، مجلة الفصول الأربعة، طرابلس، ليبيا، السنة الاولى، العدد الثالث، يوليو، 1978م، ص51.

(5) المختار العفيف: "مدينة سوكنة"، دراسة تاريخية للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية، منشورات المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، سلسلة الدراسات التاريخية رقم (49)، ط2، 2012م، ص34.

(6) محمد سليمان أيوب، مراجعة سعيد علي حامد ومحمد علي عيسى: معالم أثرية من الجنوب الجماهيرية، مصلحة الآثار، طرابلس، الجماهيرية، 1993م، ص97.

(7) د.ج. ماتينغلي، منطقة طرابلس في العهد الروماني، ترجمة محمد الجراري، محمد عبدالهادي حيدر، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، طرابلس، 2009م، ص .

(8) علي الميلودي عمورة: القلاع والحصون والقصور والمحارس على التراب الليبي خلال مختلف العهود، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، سلسلة رقم (60)، 2005م، ص233.

(9) شبكة المعلومات (الانترنت) ,الفنون والعمارة في فزان.